محاضرات الثلاثاء

تأليف فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى — نشر مكتبة الخانجى بمصر

١٦٠ صفحة من الحجم الكبير — طبع دار الكتاب العربى بالقاهرة

عندى أن الكتاب الذى يظهر فى السوق الأدبية لا يكون له قيمة ، إلا إذا أتى بجديد ، أوجاء بطريف ، وأما إذا كان ترديداً لكلام سابق ، أو نقلا مشوها عن مصدر قديم ، فإنه لا يروج إلا عند الجهلاء ، أو الذين لم ينالوا من الثقافة قسطاً كافياً يجعلهم يفرقون بين الطيب والخبيث ؛ وما أقل الكتب القيمة التى تستلفت البصر وتثير الفكر فى هذه الأيام .

وأشهد لقد ثارت فى نفسى عواطف الإعجاب والتقدير حينما تناولت كتاب : « محاضرات الثلاثاء » لمؤلفه فضيلة الأستاذ المحاضر المعروف والكاتب البليغ الشيخ أحمد الشرباصى الأستاذ بالأزهر ، فإنى أقرر أن هذا الكتاب من الكتب القليلة التى تأتينا بالجديد ، وتقبل على عقولنا بما يفيدها ، وعلى قلوبنا بما يوقظها ويحركها ، وعلى نفوسنا بما يسموبها ؛ وعلى الرغم من أن هذه البحوث القيمة التى اشتمل عليها كتاب : « محاضرات الثلاثاء » قد ألقيت فى محاضرات عامة بدار الشبان المسلمين منذ عام أو عامين ، وعلى الرغم من أن الكثيرين قد سعوا إليها ، وسمعوها من صاحبها ، فلا يزال لهذه البحوث جدتها وطرافتها ، ولا يزال لها قوتها ومكانتها ، والسبب فى ذلك عندى أن صياغة المحاضر غير صياغة الكاتب ، وأن هذه المحاضرات تتناول أموراً تشغل بال الناس ، وهم لا يزالون يتطلبون فيها الفكرة الواضحة والرأى الفاصل والقول الصواب ؛ ولذلك أعتقد أن الكثيرين الذين حرصوا على الاستماع إلى هذه البحوث الطيبة وهى محاضرات تلقى وتذاع بصوت صاحبها ، سيحرصون كذلك على اقتنائها مطبوعة وقراءتها مكتوبة بقلم قائلها . والرجوع إليها إذا ما أرادوا أن يستأنسوا برأى دقيق فى هذه الموضوعات الهامة .

وإذا كان لى من نقد شكلى أتعجل بسوقه إلى المؤلف فهو أنه اختار لكتابه نوعاً من الحروف صغيراً دقيقاً ، وزحم الصفحات بالسطور والكلمات ، وضغط العبارات بعضها بجانب بعض فى صورة لافتة ، ويظهر أن قسوة التكاليف فى الطباعة مع الغلو الفاحش فى أثمان الورق ، مع رغبة المؤلف الفضال فى أن يحشد أكبر قدر ممكن من محاضراته فى حيز معقول من الصفحات ، هو الذى دفعه إلى ذلك ؛ وإلا فإنى أعتقد أن كتابه الذى ظهر فى مائة وستين صفحة من الحجم الكبير كان من الممكن بكل سهولة أن يظهر فى أربعمائة صفحة من نفس الحجم الذى ظهر به ، لو أنه طبع بحروف كبيرة كالحروف المعتادة التى تظهر بها الكتب المختلفة .

انظر معى إلى البحث الأول من بحوث هذا الكتاب الجديد ، إن موضوعه هو : « الثقافة العامة فى القرآن الكريم » ؛ وهو موضوع جليل استطاع الكاتب فيه أن يصول ويجول ، وأن يأتى بأشياء تدهش وتثير مما احتواه هذا الدستور الإلهى العجيب من الحقائق والدقائق ، والعلوم والفنون . فهو يحدثك عما هو القرآن الكريم ، وعن الخطر الذى يتعرض له القرآن بسبب انتشار التعليم المدنى بدون تطعيمه بالتعليم الدينى ، ثم يورد المعانى اللغوية لكلمة « الثقافة » ثم يحدد معناها العرفى الاصطلاحى فى براعة ودقة ملاحظة ، ويورد لذلك جميع استعمالات القرآن لكلمة ثقافة ، ثم يورد شهادات كثيرة للقرآن بأنه كتاب الثقافة ، ويبين كيف فرض القرآن الثقافة فجعلها حقاً مشاعاً مجانياً لكل طالب وراغب ، وكيف استوفى القرآن أركان الثقافة فى ناحية العقل والنفس والجسم ، ويتحدث بعد ذلك عن العلوم فى القرآن ، وعن أسلوبه الرفيع وغريب اللغة فيه ، وعن أمثاله وأدب خطابه ؛ ثم يختم بحثه المستفيض بالمطالبة الصريحة بأن يكون القرآن الكريم أساساً للتعليم .

ونجد البحث الثانى عن « الإسلام والشيوعية » جديداً فى فكرته وطريقته ؛ إنه لا يفترى على الشيوعية ولا يغنى فيها ، وإنه لايؤيد الديمقراطية ولا يعاديها ، وإنه يقر الرأسمالية ولكنه يقصقص حدة خوافيها ، ثم يقدم لنا الإسلام العظيم مذهباً اقتصادياً يمتاز ببساطته وعدالته وتمشيه مع المصلحة العامة التى لا تزهق المصلحة الفردية ، ومعنى هذا أن الذين يتغنون بالشيوعية يجب أن ينصرفوا عنها ، وأن الذين ينخدعون بالديمقراطية يجب أن يبتعدوا عنها ، وعلى الجميع أن يأخذوا دستورهم من كتاب ربهم الذى لايضل ولا ينسى ، ومن تعاليم دينهم الذى جعله الله خاتمة الأديان وصالحاً لكل زمان ومكان ؛ ولقد كان المؤلف دقيقاً عميقاً فى حديثه عن الزكاة والربا والاحتكار والتأمين والإرث والتجارة والاستغلال والاستبداد وغير ذلك .

وأما بحث « الإسلام وتحديد النسل » فموضوع دقيق جليل ، زلت فيه أقدام وتهورت أقلام ، فجاء المؤلف يعرض المسألة من جميع نواحيها ، فيتحدث عن العزل والعزوبة والتعقيم والإجهاض والوأد ، وعن علاقة تحديد النسل بالإصلاح الاجتماعى ، وهل يحتاج المجتمع حقيقة إلى تحديد النسل أو لا يحتاج ، وما أشد تهكم المؤلف الداعية حين طالب بتحديد نسل الكلاب المدللة ، وحين قال :

« هل يعلم الناس أن فى بلادنا من يكرم الكلاب أكثر مما يكرم الآدميين ؟ ومن يحزن لفراق الكلاب كما يحزن لفراق الأعزاء ؟ ومن يقيم لكلبته مأتماً إذا ماتت ؟ ومن يقيم ضريحاً رخامياً لكلبه الغالى ؟ ... ألم يقرأ الناس فى صحفنا اليومية ذلك ؟ ألم يروا من بين المناظر المثيرة المؤسفة المنشورة فى تلك الصحف صورة تلك المرأة الثرية التى ألصقت خدها بضريح كلبتها الرخامى ، وأخذت تبكى على العزيزة الغالية ؟ » . . .

ثم يأتى بحث المؤلف الكبير : « فى صحبة المكفوفين » وهو أضخم بحوث الكتاب من حيث الكمية ، وأمتعها من حيث الكيف ، إذا استطعنا أن نفاضل بين بحوث الكتاب الجيدة كلها ؛ فقد استغرق هذا البحث الجديد الطريف العظيم من صفحات الكتاب ما يزيد عن ثلاثين صفحة ، وكل صفحة كبيرة الحجم مضغوطة بالسطور ، وهذا ما ألوم المؤلف عليه أشد اللوم ، لأن هذا البحث مثلا كان يمكن أن يظهر كتاباً مستقلا ، لو أنه طبع طبعاً عادياً بحروف كبيرة أو متوسطة ؛ وهذا اللوم الشديد لا ينسينى أن أقرر أن هذا البحث هو أول بحث رأيته فى العربية عن هؤلاء المكفوفين . وهو بحث يستحق أن نزف التهنئة عليه إلى حضرة المؤلف مضاعفة موفور ، لأنه بحث جديد بكل ما تحمل كلة « جديد » من معان . . . إنه جديد فى موضوعه ، وجديد فى عرضه ، وجديد فى الروح النبيلة المخلصة التى دفعت المؤلف إلى أن يلقى عدة محاضرات عن المكفوفين ، ثم يسجل هذه المحاضرات فى باب طويل ممتع يضمه هذا الكتاب ؛ وأكاد أعتقد أن هذا البحث الجديد عن المكفوفين سيكون بداءة لبحوث كثيرة حول هذه الطائفة من غير المؤلف ، وإن كان المؤلف قد أفاض فحدثنا عن المكفوفين فى الحياة وفى التاريخ ، وحديث القرآن عن العمى ، وذكاء العميان ، ونوادرهم وأخلاقهم وما أصابهم من ظلم ، والطرق الحديثة لتعليمهم ، ولم ينس المؤلف أن يكون وفياً لمعهده الأكبر الجامع الأزهر ، فطالب بأن ينهض المسئولون فى الأزهر بالمكفوفين الأزهريين حتى يأخذوا قسطهم الأوفى من التعليم والحياة .

وسيطول القول إذا فصلت الكلام عن بحوث الكتاب : « جمال الدين الأفغانى » و « ذكرياتى عن التدخين » و « الربيع فى القرآن الكريم » و « مذهب الشيخ محمد عبده فى الإصلاح » ؛ ولكنى لا أستطيع أن أختم هذا القول دون أن أشير إلى البحث القيم الذى ختم المؤلف به كتابه هذا وهو بحث : « الأخلاق فى المسيحية والإسلام » . ولقد كان المؤلف صادقاً كل الصدق حين أراد أن يضع العنوان لهذا الفصل فقال فى أوله : « إنها دعوة تتسامى عن صخب الجدل الدينى ، لتدعو أبناء الوطن الواحد إلى أسباب الاتحاد فى ميدان الجهاد » .

وقد استطاع المؤلف بطول بحثه وتنقيبه أن يلم بشتات الموضوع فى هذه الناحية ، فعرض الأخلاق مفصلة فى الإسلام ، ثم عرض الأخلاق مفصلة فى المسيحية ، ثم أخذ يبين وجوه الاتفاق بين الأخلاق فى الدينين ، ثم أحسن التأويل لإزالة بعض مظاهر الخلاف الذى يبدو بين المسيحية والإسلام ؛ ثم اتخذ من هذا الاتفاق وسيلة لكى يدعو أبناء الوطن الواحد من أهل الدينين إلى الاتحاد والتعاون فى سبيل الحياة والوطن ، بعد أن بين الأخطار التى تنشأ عن التعصب وحدة الخلاف . . .

لا جرم أن هذا كتاب جديد ، وكتاب مفيد ، فلصاحبه أوفر الشكر ، ولقرائه أطيب النفع ! . . .

محمود الخواص

المدرس بوزارة المعارف